الآثار النفسية للتعريب على طلاب الطب بالجامعات الأردنية

د. فايــز الرفاعــي(*)

مقدمة :

لم تكن علوم الطب في يوم من الأيام سجينة حضارة أمة من الأمم أو رهينة معذبة لشعب من الشعوب.

وما تعريب العلوم الطبية من شتى منابت وأصول الأمم السالفة (الهندية، الفارسية، الرومانية، اليونانية، إلى غير ذلك)، ونقل تجاربها والانطلاق بها إلى تأسيس مدرسة طبية قادت هذه الأمة لتصبح في مقدمة الأمم، إلا حقيقة ثابتة أدخلها التاريخ من أوسع أبوابه. وقد أثبتت هذه المسألة أن تعريب علوم الطب في حقيقته تحويل للمادة العلمية من مادة غريبه عن العقل العربي إلى مادة قادرة على التمازج مع العقل واللسان والفكر، وذلك من خلال تفاعل حقيقي وخصب بين المادة العلمية واللغة بصفتها وعاء الفكر وأداة الإبداع العلمي وواسطة الربط بين التراث والحاضر من جهة والمستقبل من جهة أخرى.

مشكلة البحث:

إلى أي مدى نستطيع أن نسخّر المفهوم الحديث للتعريب، وأن نضع المصطلح العلمي العربي في مقدمة الأولويات في علوم الطب، وما التأثير النفسي على مستخدمه؟

رغم وجود الأسلاك الشائكة والعقبات إلا أنه بدا واضحاً بعد دخول تجربة التعريب أبواب العديد من جامعات الأقطار العربية واستعمال المفهوم الأجنبي بالطريقة العربية، والمصطلح العربي للحقيقة العلمية الأجنبية، ان المشكلة لم تعد مشكلة قدرة اللغة او تفاعلها طوعاً أو كرهاً مع علوم الطب، وهل هي صالحة لخوض غمار الحضارة أم لا، أو أن فيها من المصطلحات العلمية ما يسد حاجة العلوم وبخاصة الطبية، أو أنها مقبولة لدى الطالب في الجامعات العربية. حيث أنها أثبتت جدارتها واستمراريتها وصمودها، وبالتالي نجاحها ونجاح الكثير من الجامعات التي التزمت بها نهجاً علمياً وطريق دراسة وبحثاً، وكان عامل مرور الزمن كفيلاً بأن يغير المفاهيم وأن يقودها نحو القناعة بأن العربية لغة حضارة وبحراً عميقاً زاخراً بما يحتاجه السابح الماهر والباحث الفذ لاختيار الأفضل والأحسن في سبيل إيصال

(*) اختصاصي " طب الأسرة والمجتمع " بالمملكة الأردنية الهاشمية

الحقيقة العلمية إلى من يبحث عنها.

واقع الرابطة القوية بين الفكر واللغة في القطر الأردني ثابت بين أبنائه، وحب يربط الاثنين مع شخصية الشاب المتعلم واضح من خلال المشاركة في الأبحاث والدراسات والحلقات العلمية والتمثيل على جميع المستويات، وفي شتى المحافل العربية والدولية.

ولدى الأردن– طلاباً وأساتذة وعلماء– عادة التفكير والأداء العلمي باللغة العربية، من هنا دخلوا وهم مستمرون إن شاء الله–في عملية التفكير والإبداع، حيث أن هذه العلمية تكون أيسر وأشد مطاوعة لمن يفكر ويكتب بلغته.

{قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مدداً} (الكهف109).

تطلع الشباب في بلدي نحو الانقلاب الحضاري– توجهوا بكل جهودهم لنيل العلم – أكاديمياً وتطبيقياً والتعلم عن بعد في ظل جو من الحرية العامة والفكرية المصونة والديمقراطية والحياة الأفضل، متوفرة لهم الوسائل التعليمية والتوضيحية المختلفة بمختلف لغات العالم. في ظل الجو الديمقراطي الذي نعيش وغياب القرار السياسي، حمل بعض الأساتذة الكرام على عاتقهم قبل بضع سنين فكرة التدريس لبعض أساسيات علوم الطب باللغة العربية، استساغ الطلاب هذه الفكرة وقبلوها وهم متلهفون وكان أفضل استقبالٍ لها في شرح المختبرات الطبية والمناقشة السريرية الصباحية– وكانت هناك تجربة بسيطة في المختبر لمجموعة من طلاب السنة الثانية– الكيمياء الحيوية– كلية الطب – الجامعة الأردنية، فتم تقسيم الطلاب إلى مجموعتين تتكون كل واحدة من 20 طالباً بعد أن تم تزويدهم بالمراجع العلمية باللغة العربية.

استعمل مع المجموعة الأولى الشرح وإيصال المعلومات باللغة العربية دون اللجوء إلى الأجنبية مطلقا، واستعمل مع المجموعة الثانية اللغة الانجليزية دونما اللجوء إلى العربية مطلقاً.

وتم إجراء الاختبار لكل مجموعة على حده نجح من المجموعة الأولى ما نسبته 98% بعلامات تتفاوت بين 8٫5 –9 من عشرة ونجح من المجموعة الثانية ما نسبته 70%بعلامات لم تزد عن 7٫5 من عشرة. ايصال المعلومات باللغة العربية السهلة له أكبر الأثر في ترسيخها في ذهن الطالب وبالتالي في ابداعه.

لكن ! ! الواقع

تفاوت الناس في صفاء السريرة ونقاء الذهن والإدراك والتفكير جعلهم يدخلون بانقسامات مختلفة ولعل هذه تكون رحمة للأمة وبالتالي طريقاً للإبداع.

تنوع وسائل التعليم والتثقيف المعرب جعل مجالاً للشباب للخوض في غمار حرب لها أول وليس لها آخر(من حيث

عدم وضوح الفكرة المترجمة والمعنى وسهولتها أو الأسلوب أو الهدف وغيرها) وبالتالي ترك الهدف الذي من أجله توجه نحو التعليم العالي.

ترجمة الثقافة العلمية الأجنبية ترجمة حرفية أدخل إلى مجتمعنا خليطاً من الأفكار تمخضت عنه عادات وتقاليد ومفاهيم علمية حديثة الأمر الذي ذهب باستقلالية الشخصية العربية وأيضاً النفسية، والتضارب بين أن يقبل العلوم متأثراً بما يقرأ أو أن يقبلها متأثراً بالمجتمع الذي يعيش.

أن تكون مصطلحاً عربياً في إطار علم أجنبي أو بشمولية أكثر في إطار حضارة وتقدم وإمكانيات وتفكير غربي وعدم دقة المصطلحات الطبية المستعملة، فذلك شيء عسير على الطلاب غير يسير يخلق بلبلة في المفاهيم من حيث الاستيعاب، وإدراك الهدف، والمقصود من هذا المصطلح وخلفية مفهوم المصطلح لديه. من هنا كانت الطريق شائكة ومحفوفة بالمخاطر حيث القبول والرفض والتوجه نحو دوامة القتل الذاتي، وهذه تحتاج للبحث عن علاج.

إذن... الأمر يحتاج إلى إعادة تقدير للموقف، ومراجعة للحسابات، لتظهر عناصر المهمة في المصطلح العربي واضحة جلية، وكيف يمكن أن يكون متعلم العلوم الطبية بعد أن يعرف من هو، وماذا يريد، وأين موقعه من المقدمة والحركة ومتى يمكن أن يكون استيعاب المصطلح المعرب ممكناً. كيف يمكن له أن يحمي نفسه من قذائف الأفكار المغلوطة التي في النهاية لا بد وأن تجعل منه الضحية اللذيذة المذاق، سهلة الهضم، أو تجعله يعلن الطلاق البائن بينونة كبرى عن شرقيته وعروبته وأصله وقرآنه، إن هي تمكنت منه، بما تحتوي هذه من إيجابيات، ولو كانت هذه الإيجابيات هي الهدوء النفسي، والاستقرار الروحي– لكفى.

بعد المسافة الزمنية للنقلة الحضارية واتساع فارق العمق الحسي وإدراك مستوى التطور الحضاري ومستوى التعلق بالانسانية والاتصال الروحي يظهر الطالب غير منسجم والنهج الجديد، وليس بمنسلخ عن بيئته، الأمر الذي قد يظهر ظاهرة البرود والابتعاد التدريجي عن الحمية والحماس المعهودين. من هنا، من الممكن أن تظهر ظاهرة الضمير الغربي والمطالبة بالأنظمة التي يحبها، أو يتعاطف معها، وأيضاً ظهور التصرف الهجومي الذي ينعكس بصورة ثورية توضح تردي الوضع النفسي وتفاقم أزمة الاضطراب الحسي.

الاستقطاب الأيديولوجي– السلوك الوطني الأم والسلوك الأيديولوجي الثوري المكتسب، مختلفا المنبع، لكن ! !

الأصل في التبني واحد، وهو الشخصية الإنسانية وعضو قيادتهم إلى الأمام هو الإنسان.

الإنسان العربي بعامه، والأردني بخاصة، الذي يمثل شريحه من شرائح الإنسان العربي هو نموذج نفسي يستلهم الخلق المميز بالوسطيه والاعتدال، وتنطبق عليه الشروط الإنسانية المطابقة بحد ذاتها للطبيعه والفطرة، إيجابية إلى حد

ما، تطلق العنان للقدرة الإلهية أن تفعل ما تشاء، وعليه فإن الاستقطاب الايديولوجي يكون تأثيره محدوداً.

أما ظاهرة الابتعاد عن كل ما هو مرتبط بحاجتنا، واعتبار الماضي نوعاً من الهراء، الذي لا يقدم ولا يؤخر، والتمرد على جيل الكبار، بما في ذلك القيم والعادات والانبهار بكل ما هو قادم من الخارج دونما تمحيص ولا تمييز، فهذا مفهوم موجود أفقد الكثيرين من أبناء الأمة مصداقيتهم، وقدم لنا شخصيات قيادية مهزوزة متلونة بخط فكري علمي غير واضح المعالم يتلمسه الشباب ، أدى ويؤدي إلى ضياعهم بين ركام ومخلفات الحضارات الأجنبية. حيث أن العالم أصبح اليوم عبارة عن قرية صغيرة، وعملية النقل والترجمة والتعريب للعلوم بكافة وعلوم الطب بخاصة متوفرة وبسهولة. هذا المفهوم وهذه الظاهرة لا يعيقان حركة تطور تطلعات الشباب العربية في الأردن.

من هنا ومن أجل الحصول على نتائج إيجابية بثمن أقل من فقدان الطاقات البشرية، ومن أجل تسخير وتطوير المفهوم الحديث للتعريب، ووضع المصطلح العلمي العربي في مقدمة الأولويات في علوم الطب، يجب علينا أن نتروى في الحكم على مجريات أمور وأحداث ومشاكل التعريب، وأن نسير جادّين نحو الهدف الذي من أجله تم اختيار هذا الطريق، مطالبين بتبني برنامج وطني للتوعية والإعلام في مجال التعريب وأن ندق ناقوس الخطر وأن ننزل إلى الشارع ونبحث في:

1. أخطار التعريب المغلوط للعلوم الطبية
2. تلوث العقل والفكر العربي
3. مشاكل التعريب بعامة والعلوم الطبية بخاصة
4. الدعوة إلى احياء المدرسة الطبية العربية والطب العربي.
5. تفعيل دور الرقابة في تخصيص المصادر وحل المشاكل بفعالية وتحسين الإنتاج العلمي وبخاصة تسهيل المصطلح العلمي وتقريبه إلى الاستساغة والتوحيد.
6. متابعة الطلبة والأساتذة الكرام في استعمالهم للمفهوم والمصطلح العربي.
7. دعم فكرة بنك المعلومات ومراقبته في جميع المجالات العلمية وتحسس مشاكله من خلال الرقابة والعمل على حلها.
8. دعم نشر وتوزيع وإظهار الكتب الطبية والصحية المنهجية والمرجعية بما في ذلك المجالات والدوريات باللغة العربية، ودعم المعجم الطبي الموحد الذي خدم، ولا شك أهداف وتطلعات دور المفهوم والمصطلح العلمي العربي (لجنة توعية وتثقيف وإعلام)   (التركيز على توحيد المصطلح العلمي العربي).

9. تشجيع الجمعيات والمنظمات الطبية العربية على عقد اجتماعات دورية يحضرها المختصون العرب، ودعوة الخبراء لمناقشة المفاهيم والمصطلحات العربية قبل توزيعها وطرحها على طلاب العلم.

10. تفعيل دور التدريب والمدربين لتأهيل المدرسين للطب و العلوم الطبية.